مجلة
جامعة المهرة
للعلوم الإنسانية
مجلة علمية نصف سنوية محكمة
العدد العشرون – محرم 1448هـ – يونيو 2026م
ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

صورة الغرب في "رحلاتي إلى بلاد الإنجليز" لمازن مطبَّقاني
– دراسة في ضوء النَّقد الثَّقافي–

الباحثة: فاطمة أحمد الشاردي.
طالبة دكتوراه بجامعة الملك خالد السعودية
fatmhalshardy7@gmail.com

تاريخ إرسال البحث للمجلة 2025/10/15 تاريخ قبول البحث 2025/11/4
تاريخ نشر البحث 2026/6/19
https://doi.org/10.71311/.v7i1.259

ملخص:

يسعى هذا البحثُ لتسليط الضوء على "الغرب" في خطاب الرحَّالة السُّعودي مازن مطبَّقاني من خلال كتابه "رحلاتي إلى بلاد الإنجليز"، باستخدام منهج النقد الثقافي، مع التركيز على الأنساق المُضمَرة التي أسهمت في تشكيل صورة المجتمع الغربي في كتابه. كانت أبرز النتائج التي توصَّل إليها البحث؛ أنَّ بعض الصُّور التي نقلها الرحَّالةُ قد تأثَّرت بتصوُّراته الثقافية السَّابقة التي أسهمت في تشكيل رؤيته عن الآخَر، وأنَّ الأنساقَ المُضمَرة في "رحلاتي إلى بلاد الإنجليز" تمثِّل اعترافاتٍ غيرَ مُعلَنة تكشف عن تحيُّزات ثقافية واجتماعية خفيَّة، وتعكس مواقفَ مكتومةً وأفكارًا ضمنيةً ظهرت من خلال التفاصيل والرموز من دون التَّصريح المباشر بها، فضلا عن أنَّ كتبَ الرحلات – مثل "رحلة مازن مطبَّقاني"– تكشِف عن القِيَم الثَّقافية المخفيَّة التي تحكُم تصوُّراتِ الرحَّالة وتسهم في فَهم أسباب الخلاف بين الأنا والآخَر.

الكلمات المفتاحية: صورة الغرب–أدب الرحلات السعودي–النقد الثقافي– الأنساق المضمرة–صورة الآخر.

The Image of the West in "My Journeys to the Land of the English" by Mazin Mutabagani: A Study in Light of Cultural Criticism

Fatima Ahmed Al-Shardi

PhD student at King Khalid University, Saudi Arabia

Abstract:

This study aims to shed light on the "West" in the discourse of the Saudi traveler Mazin Mutabagani through his book My Journeys to the Land of the English, using the method of cultural criticism, with a focus on the implicit patterns that contributed to shaping the image of Western society in his book. The most prominent findings of the study are that some of the images conveyed by the traveler were influenced by his prior cultural perceptions, which contributed to shaping his view of the "Other." The implicit patterns in My Journeys to the Land of the English represent unspoken confessions that reveal hidden cultural and social biases, and reflect suppressed attitudes and implicit ideas that emerged through details and symbols without being directly stated. Furthermore, travel literature—such as Mazin Mutabagani's journey—reveals the hidden cultural values that shape the traveler's perceptions and contributes to understanding the reasons behind the conflict between the self and the other. .

Keywords: image of the West, Saudi travel literature, cultural criticism, implicit patterns, image of the other.

مقدمة:

لم يَكتفِ الأدباءُ عبر التَّاريخ بكتابة المَلاحم والقصائد والقصص، بلِ اتَّجَهوا نحو التَّعبير عن تَجارِبهم الحقيقيَّة التي عاشُوها واقعًا؛ فقدَّموا بعضَ حياتهم عن طريق جنس "السِّيرة الذّاتيَّة"، وقدّموا بعضَ رحلاتهم من خلال "أدب الرِّحلة" الذي يُعنَى بعرض الكاتب لبعضِ تفاصيل رحلته من خلال طريقة عرضٍ خاصَّةٍ، وتنوَّعت

وتعدَّدت اتِّجاهاتُه فيها، ولكَون أكثرِها رحلاتٍ تتَّجه إلى الآخَر المختلِف ولِما يَكمُن فيها من رؤيةٍ ثقافية تَجسَّدت بين الرَّفض والقَبُول رأت الباحثةُ أن تكونَ رِحلةُ السُّعودي مازن مطبَّقاني مجالًا للدِّراسة؛ إذْ تُعَدُّ واحدةً مِن المُدوَّنات الأدبيَّة التي تُسلِّط الضَّوءَ على تصوير الغرب في الوعي العربي؛ إذ يَستعرض من خلال تَجارِبه الشَّخصيَّة انطباعاتِه عن المجتمع والثَّقافة الغربية؛ ممَّا يفتح المجال أمام دراسةٍ عميقة حول كيفيَّة تشكيلِ هذه الصُّورة وتأثير ثقافة الرحَّالة عليها؛ ولأهميَّة هذه الوظيفة تسعى هذه الدِّراسةُ إلى تحليل المجتمع الغربي كما ظهر في نصوص مازن مطبَّقاني – من خلال منظور النَّقد الثَّقافي– لاستجلاءِ صُوَره كما وصفه الرحَّالة، وأثر الأنساق الثَّقافيّة العربية في تشكيلِ هذه الصُّورة. والصُّورة في العنوان لا تعني الاتِّجاهَ نحو الصُّورة الفنية بلاغيًّا أو نقديًّا، بلْ تتَّجه نحو إعطاءِ فكرةٍ واضحة عن طبيعة التَّناوُل؛ ومن ثَمَّ يتَّجه البحثُ نحو الأنساق الثَّقافية الكامنة خلف تشكُّلاتها الظَّاهرة.

تستند **أسباب اختيار هذا الموضوع** إلى الرَّغبة في كشف الأنساق الثَّقافية التي أسهمت في تقديم المجتمع الغربي عند الرحَّالة السُّعودي مازن مطبَّقاني، وتقديم رؤية علمية عن هذا التَّناوُل تُسهم في الإجابة عمَّا يُتَّهم به العربُ أحيانًا مِن رفضِ الآخَر المختلِف، وتوظيف آليَّات النَّقد الثَّقافي في البحث عن الإجابة التي قد تَكشِف خفايا النَّسق.

وتتمثل **مشكلةُ الدِّراسة** في السُّؤال عن أثر الأنساق الثقافية في رسم صُور الغرب الحاضرة في رحلة مازن مطبَّقاني إلى بلاد الإنجليز، آخِذِين بعَين التَّأمُّل سياقاتِ الاختلافات الثَّقافية بين الرحَّالة والدُّوَل المُرتَحَل إليها، وهي دُوَلٌ مختلفةٌ في لُغتها وثقافتها وطبيعة أهلها.

تسعى الدراسةُ إلى: التَّعرُّف على أهمِّ الصُّوَر التي قدَّمت الغربَ في كتاب "رحلاتي إلى بلاد الإنجليز"، والكشف عن تأثير الأنساق الثَّقافيَّة في رسم صُورة الغرب في رحلة مازن مطبَّقاني، وكذلك تقديمُ تصوُّرٍ موضوعيٍّ عن رؤية الرحَّالة السُّعوديّ للآخَر الغربي التي تَناولها في رحلاته.

أمَّا **منهج الدراسة** فستَتَّخذ هذه الدِّراسةُ مِن "النَّقد الثَّقافي" منهجًا لها لكَونِه منهجًا يتجاوز الأنساقَ البلاغيَّة والجماليَّة إلى الأنساق الثَّقافية المُضمَرة.

وفي إطار **الدراسات السَّابقة** تبيَّن أنه لا توجد دراسةٌ مستقلَّة تناولت "رحلاتي إلى بلاد الإنجليز" من منظور النقد الثقافي، على الرغم من أنَّ بعضَ الدراسات قد تناولت الرِّحلة على وجه العموم. ومن بين هذه الدراسات:

- أدبُ الرِّحلة في المملكة العربية السُّعودية، لعبد الله حامد، نادي أبها الأدبي، أبها، ط1، 2014م.

ركَّزت هذه الدِّراسةُ على أدب الرِّحلة في المملكة العربية السُّعودية؛ ففي الفصل الأول تناولتْ مضامينَ أدب الرِّحلة التي انقسمت إلى أربعةِ مباحثَ هي: الحسُّ الإسلامي، والحنينُ إلى الوطن، ووسائلُ الرِّحلة، والرُّؤى النَّقدية كنقدِ الذَّات ونقد الآخَر، وفي الفصل الثَّاني دراسةٌ فنية لهذه الرِّحلات، وفي الفصل الثَّالث دراسةٌ لبعض خصائص أدباء الرِّحلة.

- صورة الشَّخصية في أدب الرحلات العلمية بالمملكة العربية السعودية في ضوء النقد الثقافي، لفاطمة الشاردي، جامعة الملك خالد، أبها، 2024م.

تناولت هذه الدراسة بالبحث تمظهراتِ صورة الشخصية في الرحلات العلمية السعودية من خلال تحليل الصُّوَر الخارجية والداخلية للشخصيات وأثر الأنساق الثقافية في تشكيلها.

- العَلاقات الحضارية بين الذّات والآخَر في رحلة الرابي بنيامين بن يونة التطيلي النباري الأندلُسي، للدُّكتور عبد الحقّ بلقيدوم، جامعة باجي مختار، مجلَّة كفاية للُّغة والأدب، مخبر الأدب العامّ والمقارن، عِنَّابة (الجزائر)، المجلَّد 01، العدد 01، تاريخ النَّشر: 30 /2021/06، ص50-68.

تناولت هذه الدِّراسةُ بالبحث الرحَّالة ابن يونة اليهوديَّ، ثمَّ قدَّمت مسارَ رحلته التي كان هدفُها الاطِّلاعَ على أحوال اليهود في العالم وإحصاءَهم، وعلى سِياقِها التَّاريخي، وارتباطِها بعرض الذّات اليهودية التي كشف فيها عن أحوال اليهود في العالم؛ فالذَّاتُ

لديه تَمثَّلت في اليهودية، أمَّا الآخَرُ فقد تَمثَّل في الصُّورة الدِّينية وغير الدِّينية من منظور اليهود.

وكل هذه الدراسات لا تتقاطع مع موضوع بحثي؛ إلا دراسة" صورة الشخصية في أدب الرحلات العلمية بالمملكة العربية السعودية" وهي تتقاطع مع دراستي في تأثير الأنساق الثقافية على تشكيل الصورة لكنها تختلف بأنها تركز على الشخصيات بينما دراستي تركز على المجتمع الغربي، كما أن دراستي تركِّز على مُدوَّنة رحلية واحدة، في حين ركَّزت هذه الدِّراسةُ السَّابقة على مجموعة من الرحلات العلمية.

التمهيد

أولاً- التعريف بالصورة:

يمكِن **تعريفُ الصُّورة لغةً بأنها:** الشَّكلُ، وتأتي بمعنى النَّوع والصِّفة، وترد في كلام العرب – على ظاهرها- بمعنى هيئة الشَّيء وحقيقته[1]، وتكتسب الصُّورةُ أهميَّتها من قُدرتها على جذب الانتباه "حين تَفرِض بها علينا نَوعًا من الانتباه للمعنى الذي تَعرِضه، وفي الطَّريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثَّر به"[2]، وفي هذا السِّياق لا تقتصر الصُّورةُ على تصوير الغرب فحسْبُ، بل تعكس أيضا ما يختلج في ذات السَّارد؛ إذ تَكشِف عن فضائه الإيديولوجي والفكري والثقافي من خلال تَمثُّلات تلك الصُّوَر التي تعكس ما يختلج في خيال السَّارد من تمظهرات وتساؤلات وأفكار يطلقها عبر إبداعه السَّرْدي[3].

وتشير معادلةٌ أخرى إلى أنَّ الصُّورةَ تساوي تَجرِبة مَعيشةً؛ أي إنَّنا حين نعثُر على صورة نعثُر على تَجرِبة مَعيشة حقًّا[4]؛ أي إنَّ الصُّورةَ في هذه الرحلة تتيح لنا الوصولَ إلى تَجرِبة حقيقية عاشها الرحَّالةُ.

---

[1] ينظر: معجم متن اللغة: 541.

[2] الصُّورة الغنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب:327-328.

[3] ينظر: صورة الشَّخصية في أدب الرحلات العلمية بالمملكة العربية السعودية في ضوء النقد الثقافي: 25.

[4] ينظر: مقدمة لدراسة الصُّورة الفنية: 73

ثانيًا- التعريف برحلة مازن مطبَّقاني:

قبل التَّعريف برحلة مازن مطبَّقاني يجب التَّطرُّق إلى التعريف بأدب الرحلة؛ فلقد اهتمَّ الكثيرُ من النقَّاد بدراسته، محاولين وضعَ تعريفاتٍ له بُغْيةَ الكشف عن ملامحه. ومِن هذه التعريفات أنَّه: "الكتبُ الرحلية أو المقالات المتَّصلة التي سجَّل فيها أصحابُها مُشاهَداتِهم وحوادثَهم ورُؤاهم الرحلية – على اختلافها وتنوُّعها- من خلال شعورهم بها ورؤيتهم لها، في لغةٍ أدبية مُوحِية"[1]، وترتكز كتاباتُ الرحَّالة على التدوين الذي يُعنى بوصف السَّفَر إلى أماكنَ مختلفةٍ، مع تسليط الضَّوء على الأماكن التي مرَّ بها الرحَّالة، وجوانبِ الحياة في تلك المناطق كالمأكل والملبس والنَّوم والنُّزهات والدُّروس، وكذلك وصفُ المجتمعات وعاداتها بما فيها مِن حسنات وسيئات، مع الحرص على تسجيل انطباعات الرحَّالة وآرائه أثناء مُقامه هناك[2].

ويعدُّ كتاب "رحلاتي إلى بلاد الإنجليز" للباحث مازن مطبَّقاني أحدَ أهمِّ هذه الكتب؛ فقد زار بريطانيا في عام 2007م بوصفه باحثًا شرفيًّا في معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة إكستر، وقدَّم دراسةً مُعمَّقةً تقدِّم رؤيةً شاملةً عن الجوانب الاجتماعية في المجتمع الإنجليزي. كما يستعرض الكتابُ الكثيرَ من القضايا الاجتماعية والصحيّة التي يعاني منها المجتمعُ الإنجليزي، مستندًا إلى الإعلام المحلِّي مثل الصَّحافة والتلفزيون. ويتناول تأمُّلاتِ الكاتب المستوحاةَ من تَجرِبته الشخصية ومُعايَشته لواقع الحياة في بريطانيا؛ الأمرُ الذي يُسهم في إثراء فَهمه للمجتمع الإنجليزي وتقديم صورةٍ نقدية له.

ثالثًا- مفهوم النقد الثقافي:

منذ خُلق الإنسان والمكانُ جزءٌ حي من تكوينه يتأثَّر به ويتأمَّله فيختزن صُورته، ويغدُو في ذِهنه مخزونًا ثقافيًّا يتأثَّر به تبعًا لهذا المكان، وتصبح علاقتُه بالمكان ذاتَ دَلالةٍ أعمقَ حينما يتحوَّل هذا المخزونُ إلى صورة من صور التَّعبير التي تشكِّل جزءًا

---

[1] أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية: 8-9.

[2] ينظر: نشأة النثر الحديث وتطوُّره: 30.

حيًّا من سيرته الذَّاتية[1]، وبالمثل يتأثَّر به الكاتبُ بوصفه ابنَ المكان، ويظهر تأثُّره من خلال نصِّه عبْر جُمَلٍ ثقافية تحمِل دَلالاتٍ نسقيةً، وتحتاج إلى أدواتٍ نقدية لاستخراج هذه الدَّلالات وفَهم المخزون الثقافي المركَّب والمعقَّد[2] الذي رَسَخ في ذِهنه عبْر الزمن، وظهر في صورةٍ واعية أو غير واعية في الخطاب.

ومن هنا تبدأ وظيفة النقد لثقافي الذي يهتمُّ باستخراج هذا المخزون من خلال آليَّاته الإجرائية؛ والنَّقدُ الثقافي كما عرَّفه الغذامي: "فرعٌ مِن فروع النَّقد النصوصي العامّ؛ ومن ثمَّ هو أحدُ علوم اللغة وحقول الألسُنية المعنيَّة بنقد الأنساق المُضمَرة التي ينطوي عليها الخطابُ الثقافي بكلِّ تجلِّياته وأنماطه وصِيَغه عن ثقافة المكان؛ ممَّا هو غيرُ رسمي وغيرُ مؤسَّساتي وما هو كذلك سواءٌ بسواء"[3]؛ إذ يُعدُّ النَّقدُ الثقافي الأداةَ التي تكشف عن ثقافة المكان من خلال نصِّ المبدع باعتباره نشاطًا فكريًّا يُعنى بالثَّقافة موضوعًا لبحثه وتفكيره[4].

ومِن أهمِّ مَحاور النَّقد الثقافي: النَّسقُ المضمَر؛ فهو مفهومٌ مركزي في النقد الثقافي، إذ تشير الثقافةُ إلى امتلاكها لأنساقٍ خاصَّة بها؛ وهي أنساقٌ مهيمنة تَتخفَّى وراء أقنعة سميكة. ومِن أهمِّ هذه الأقنعة وأخطرها قِناعُ الجمالية الذي يُستخدم في الخطاب البلاغي الجمالي، ويخفي وراءه معاني أخرى غير الجمالية، وتُعتبر الجمالية أداةً لتسويق هذا المخبوء وتمريره[5].

ومن خلال هذه الأقنعة ظلَّ النَّسقُ المضمَر غيرَ مكشوف وغيرَ منقود بسبب اعتماده على الجمالي الأدبي؛ الأمرُ الذي جعل النَّقدَ الأدبي ينشغل بمعالجة شروط الجمالية وعيوبها دون النَّظر إلى الأنساق المُضمَرة[6]؛ لذا يُعدُّ هذا النَّسقُ جوهريًّا في تحليل

---

[1] ينظر: أنساق من النَّقد الثقافي في شِعر الشَّنفَرى: 284.

[2] ينظر: مدخل في نظرية النَّقد الثقافي المقارن: 14.

[3] النَّقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية: 38-84.

[4] ينظر: دليل الناقد الأدبي:305.

[5] ينظر: نقد ثقافي أمْ نقد أدبي: 30.

[6] ينظر: المرجع السابق: 31.

النُّصوص النَّقدية؛ إذ يتسلَّل إلى باطن النصّ بطريقة غير ملحوظة، ناقضًا منطقَ النصّ ذاته ودلالاته الإبداعية؛ سواءٌ كانت صريحةً أو ضمنيةً. وهذه هي آليَّةُ تأثير الثقافة التي تتغلغل عبر المستهلك الإبداعي والحضاري بطريقةٍ غير مرئيَّة تستدعي الكشفَ عنها والتَّعريف هـ

المبحث الأول: أنواع الصور في رحلة مازن مطبقاني

المطلب الأول: الصورة الإيجابية

في هذا المطلب تتناول الباحثةُ الصُّورةَ الإيجابية للمجتمع الغربي كما قدَّمها الرحَّالةُ مازن مطبَّقاني، التي ظهرتْ بوضوح من خلال منظوره الشَّخصي؛ إذ يمكِن جعل الصُّورة السَّردية بمثابة انعكاسٍ أو تماثل للواقع الثقافي والاجتماعي؛ سواءٌ كان هذا الواقعُ مُفعَمًا بالتَّجرِبة المباشرة أو مُتأثِّرًا بالخيال والتَّصوُّرات الفردية[1]؛ وعليه فإنَّ واقعَ الرحَّالة نفسه – بما يتضمَّنه من تَجارِبَ ومُعايَشاتٍ مباشرةٍ– يؤدِّي أثرا حاسمًا في تشكيل هذه الصُّورة الإيجابية؛ إذ يسهم في نقل انطباعاته عن المجتمع الغربي بصفاته وأبعاده المختلفة، كما يسهم تأثيرُ البيئة الثقافية والظُّروف المحيطة التي عاشها الرحَّالةُ في تكوين رؤيةٍ متوازنة ومُفصَّلة حول هذه الصُّورة.

_ الرعاية الصحية

إحدى السِّمات التي أثارت إعجابَ الرحَّالة مازن مطبَّقاني في المجتمع الغربي تقديمُ الرِّعاية الصِّحية المجَّانية؛ خاصَّةً في بريطانيا؛ فيصف كيف أنَّه حين احتاج إلى دواءٍ بناءً على وصْفةٍ طِبيَّة لم يُسأل عمَّا إذا كان مِن مُواطني البلد أو عن جنسيَّته، بلْ كان العلاجُ مُتاحًا للجميع بغضِّ النَّظر عن الأصل أو الجنسية، وحين لم يكن الدَّواءُ مُتوفِّرًا في الصَّيدلية أُعلِم بأنَّه يُمكِنه العَودةُ في اليوم التَّالي لتسلُّمه، من دون الحاجة إلى إظهار هُويَّته لتأكيد استحقاقه للدَّواء، بلْ فقط العنوانَ[2].

---

[1] ينظر: صورة الرَّجُل في المتخيَّل النِّسْوي في الرواية الخليجية:10.

[2] ينظر: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 66-67.

وفي سِياقٍ آخَرَ يعبّر عن إعجابه بالاهتمام الذي أبْدتْه الموظَّفةُ في العيادة؛ إذ قدَّمتْ له ولطفله خِدْماتٍ ودَعمًا حميميًّا؛ فقد أرسلت إشعارًا بموعدٍ مع عيادة الأطفال، وخصَّصت لهما أدواتِ رسمٍ وألعاب لإبقاء الطِّفل مشغولًا في أثناء انتظار الفحص، دون إجباره على إجراء فحوصاتٍ قد تكون مُزعِجةً للأطفال[1]. كما أبدى إعجابَه ببرامج الرِّعاية المجَّانية للأطفال؛ مثل دروس السِّباحة المجانية للأطفال من دون سنِّ الثَّانيةَ عشرة التي تَعكِس اهتمامَ المجتمع الغربي بالعناية والرِّعاية الصِّحية الشَّاملة للأطفال؛ الأمرُ الذي دفعه للتَّساؤل حول إمكانية تطبيق مثل هذه الأنظمة في بلاده، مُؤكِّدًا أنَّ الأمانةَ في تقديم العلاج دون استغلالٍ للموارد تظل شرطًا أساسيًّا لتحقيق ذلك[2].

وترى الباحثةُ أنَّه في الوقت الراهن صارت وزارةُ الصِّحَّة في الكثير من الدُّوَل – ومنها المملكةُ العربية السعودية– تُقدِّم دعمًا صحيًّا مُماثلًا لِما وصفه الرحَّالةُ مازن مطبَّقاني في رحلته إلى الغرب؛ إذ تُوفِّر الرِّعايةُ الصَّحية المجانية أو المدعومة دعمًا كبيرًا للفئات المختلفة من المجتمع؛ سواءٌ من خلال المراكز الصِّحيَّة الحكومية أو برامج التَّأمين الصِّحي الوطني. كما شهدتْ هذه الأنظمةُ تَحسُّنًا ملحوظًا في تقديم الخِدْمات الصِّحية للأطفال والشَّباب عن طريق توفير الرِّعاية الوقائية والعلاجية بما يتماشى مع التَّطوُّرات الصِّحيَّة العالمية.

ـ الواقع الديني

أبدى الرحَّالةُ مازن مطبَّقاني إعجابَه ببعض جوانب الواقع الدِّيني في الغرب، وهو ما يتناقض مع تَوقُّعاته المبدئية التي كانت مَشُوبةً بنظرةٍ سلبية تُجاه ابتعاد المجتمعات الغربية عن الدِّين. فقد لاحظ حِرصَ النِّساء الإنجليزيات على تَعلُّم القرآن الكريم فقال: "كان للنِّساء درسٌ في قراءة القرآن وتفسيره كلَّ يومِ سَبت، وقد حضرتْ بعضُ النِّساء الإنجليزيات اللَّاتي أَسْلَمن؛ فتَعجَّبتُ مِن حِرصهنَّ على تعلُّم القرآن على الرَّغم من

(1) ينظر: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 67.

(2) ينظر: المصدر السابق: 68.

صُعوبة ذلك بالنِّسبة لبعضهنَّ"[1]، هذا المشهدُ أثار إعجابَه الشَّديد؛ خاصَّةً في ظلِّ تجسيد التزامهنَّ الدِّيني وحُبِّهنَّ للمشاركة في الأنشطة الدِّينية.

وفي سِياقٍ مُشابه عبَّر عن إعجابه بالممارَسات الدينية في المجتمع الغربي في خلال مؤتمر حضره في الولايات المتَّحدة؛ إذ أشار إلى "التَّوقُّف لصلاة الجمعة" في أثناء المؤتمر، وهو أمرٌ لم يَحدُث في بعض المؤتمرات السَّابقة التي حضرها في العالم العربي؛ خاصَّةً في القاهرة. وعلَّق قائلًا: "في المؤتمر الأمريكي معظمُ المشاركين ذهبوا لأداء الصَّلاة في حين في المؤتمر بالقاهرة لم يتوقَّف المؤتمرُ للصَّلاة، وقليلٌ مَن ذهب لأداء صلاة الجمعة"[2]. هذه الملاحظةُ تعكس صورةً إيجابيةً عن احترام الغرب للممارَسات الدينية بخِلاف التَّوقُّعات التي قد تكون سلبيةً بناءً على التَّصوُّرات السَّابقة المختزَلة في ذِهن الرحَّالة.

_التعلم المستمر

برزت الصُّورةُ الإيجابية هنا في إعجاب الرحَّالة مازن مطبَّقاني بمُثابَرة رجلٍ إنجليزي تجاوز عُمره الستِّين عامًا حيث حصل على درجة الماجستير الثَّامنة. يقول الرحَّالةُ: "إنجليزيٌّ عُمرُه اثنان وستُّون سنةً يحصل على درجة الماجستير الثَّامنة؛ فقد كان يعمل في وظيفة أمين مكتبة قبْل عَشر سنوات عندما حصل على درجة الماجستير الثَّانية، ولكنَّه عندما علم أنَّ سجينًا حصل على ستِّ درجات ماجستير في ثلاثَ عشرةَ سنةً قرَّر أن يَتحدَّى ذلك بعدد الشَّهادات فشَرعَ في الحصول عليها"[3]. وعلى الرَّغم من أنَّ الرحَّالة يَلفِت النَّظرَ إلى أنَّ العِبرة ليست في الشَّهادات نفسها بلْ في الإصرار على الدراسة فإنَّ ما أثار إعجابَه أنَّ هذا الرَّجُلَ لم يُقيَّد بعمره، وتَحدَّى سِنَّه للحصول على تلك الشَّهادات.

يتساءل الرحَّالةُ مازن مطبَّقاني عن ثقافة بعض البُلدان التي تمنع الأفرادَ الذين تجاوزوا سِنَّ الأربعين من الالْتحاق بالدِّراسات العُليا، ويرى ذلك تَعسُّفيةً في حقِّهم؛ لذا يقول:

---

[1] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 185.

[2] المصدر السابق: 216-217.

[3] المصدر السابق: 142-143.

"في بعض البلاد التي تُقدِّم الدَّولةُ أو الجامعاتُ الرسمية الحكومية فيها الدِّراساتِ العُليا تمنع مَن تَجاوَز الأربعين من الالْتحاق بالدِّراسات العُليا؛ وكأنَّ العمليةَ لديهم ماديَّةٌ بْحتة. فنحنُ لا نُنفق على شخص لن يكون مُنتِجًا أو نُفيد منه في التدريس ما دام التعليمُ مجَّانيًّا، وهكذا يجب أن يكونَ؛ فلماذا يُحرَم مَن تجاوز الأربعين الحقَّ في الدراسة؟"[1].

وترى الباحثةُ أنَّ الصُّورةَ التي نقلها الرحَّالةُ عن الغرب تُعطي مِثالًا لثقافة التعليمِ المستمرِّ والإصرار على التَّعلُّم بغضِّ النَّظر عن العُمر. وفي الوقت الرَّاهن لم تعد هناك أيُّ قيود على العُمر في برامج الدِّراسات العُليا في الكثير من الدُّول ومنها المملكةُ العربية السعودية؛ إذ يمكِن للأفراد فوق سنِّ الأربعين الالْتحاقُ بالدراسات العُليا، ومُتابَعةُ تعليمهم وَفقًا لبرامجَ أكاديميةٍ مرنةٍ، بلْ وحتَّى في مراحل التعليم المدرسي إذ تميل الأنظمةُ التعليمية إلى تقديم فُرصٍ تعليمية للجميع مدعومةٍ من الدَّولة ووزارة التَّعليم.

المطلب الثاني: الصورة السلبية

في هذا الجزء تتناول الباحثةُ الصُّورةَ السَّلبية التي تمثِّل الجانبَ المعاكس للصوُّرة الإيجابية التي نُوقشت سابقا، وتستعرض هذه الصُّورةَ السَّلبية كما تجلَّت في رؤى الرحَّالة مازن مطبَّقاني من خلال انطباعاته وانتقاداته التي شكَّلتْ رؤيتَه السَّلبية للمجتمع الغربي، وتُحلِّلها تحليلًا مُفصَّلًا في هذا السِّياق.

_ العمر وقلة الفاعلية

العملُ نشاطٌ لا يَتقيَّد بعُمر أو رقم محدَّد، إلَّا أنَّ هذه الفكرةَ تتناقض مع بعض التَّصوُّرات الثقافية التي تؤطِّر العملَ في مراحلَ مُعيَّنةٍ من الحياة. وفي هذا السِّياق يُبرز الرحَّالةُ مازن مطبَّقاني مثالًا لصُوَرٍ سلبية تتشكَّل لدى الأفراد بناءً على خلفيَّات ثقافية مُعيَّنة؛ فيصف في إحدى مُشاهَداته رَجُلًا مُسِنًّا يبيع الصُّحَفَ على رغم تقدُّمه في العمر، وهذا ممَّا أثار استغرابَه فقال: لفتَ انتباهي في المقهى بائعُ الصُّحف الذي

[1] ينظر: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 142-143.

يبيع صحيفةَ الإيفننج استاندرد وهو عجوزٌ تِسعُون في المائة مِن شَعره الأبيضُ... بائعُ الصُّحف هذا يستخدم حاملًا مُتحرِّكًا، وعلى الحامل عمودٌ يرتفع قليلًا عن قامة الرَّجل بنصف متر وعليه اسمُ الصَّحيفة.. لماذا يبيع الرَّجُلُ الصُّحفَ وقد بلغ من العُمر عِتيًّا؟ ما دخلُه مِن بَيع الصُّحف؟ هلْ هو متقاعدٌ واختار أن يَشغَلَ وقتَ فراغه بهذا العمل، أو أنَّه يعمل في هذه المهنة من بداية حياته حتَّى الآن؟ هلْ هو متعلِّمٌ أو أنَّ تعليمَه محدودٌ اضطرَّه إلى العمل في هذه المهنة[1].

تُمثِّل هذه الصُّورةُ التي كوَّنها الرحَّالةُ جزءًا من تصوُّره عن المتقاعِد؛ بسبب ربطِ التَّقدُّم في العُمر بقلَّة الفاعلية أو تقليص الأدوار الاجتماعية. وهذه الرُّؤيةُ تتناقض مع الصُّورة الإيجابية حين أبدى إعجابَه بشخصٍ تَجاوز السِّتِّين من عُمره وما زال يواصل تحصيلَ شهادات الماجستير؛ الأمرُ الذي يعكس تَصوُّرًا أكثرَ مُرونةً تُجاه العُمر والعمل في الثقافات الغربية.

ومع ذلك يعكس الرحَّالةُ في مكانٍ آخَرَ صورةً سلبيةً أُخرى للمُتقاعد العربي بناءً على مُعايَشته الشَّخصية في محيطه الثقافي، حيث يقول: "أمَّا إنْ جلس المتقاعدُ في البيت فأبرزُ ما يفعله أنَّه يتدخَّل في شؤون البيت: لماذا قِطعةُ الأثاث هذه هنا وليست هناك؟ لماذا تَطبُخين بهذه الطَّريقة وليست بتلك... أنت امرأةٌ مسرفة، كميَّة الزَّيت في الطبخ أكثرُ من اللازم، أو كمية الصابون الذي وضعته الزوجةُ في الغسَّالة أكثر أو أقل"[2].

هذه الصُّورة النمطية عن المتقاعد ترتبط بالمعتقدات الثقافية الراسخة في ذِهن الرحَّالة، وتتحدَّد بناءً على تَجارِبه الشخصية؛ إذ يُربط التقاعدُ بقلَّة النشاط والمشاركة الفاعلة في المجتمع. ولكن من المهمّ التأكيدُ أن هذه التصوُّراتِ لا تمثل الواقعَ تمثيلًا شاملًا؛ لأنَّ تَجارِبَ المتقاعدين قد تتفاوت كثيرًا بحسَب السياقات الاجتماعية والثقافية المختلفة، ولا تعكس بالضرورة صورةً واحدةً أو ثابتةً لكل المتقاعدين في أي مجتمع كان.

---

[1] ينظر: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 22.

[2] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز، ص23-24.

الجشع الغربي:

الكرمُ من القيم الدينية والخُلقية الأساسية في الثقافة العربية، وهو جزءٌ من المروءة والتكامل الاجتماعي التي تَربَّى عليها العربيُّ منذ نشأته في بيئة صحراوية؛ إذ يعدُّ الكرمُ من أبرز معايير الفضيلة وضرورات الوجود الإنساني في الحياة القبلية[1]. كما أنَّ للعربي معاييرَ ثقافيةً خاصَّةً بالكرم يجب أن يحقِّقها ليصلَ إلى الدرجة المتوقَّعة من هذه الفضيلة. إلا أنَّ هذه المعايير الثقافية تختلف اختلافًا واضحًا عن تلك المعايير السَّائدة في المجتمعات الغربية؛ وهذا ممَّا يؤدِّي إلى تصوّرات سلبية لدى الرحَّالة العرب حول سُلوكيَّات الغربيين كما يتَّضح من تَجرِبة مازن مطبَّقاني.

يقول مطبَّقاني في وصفه لإحدى تَجارِبه مع الدكتور أحمد المليباري، وهو سعوديٌّ من جنسية الرحَّالة نفسها: "بعْد اللِّقاء كان الدكتور أحمدُ المليباري (يعدُّ للدكتوراه) في انتظارنا في ماركفيلد، فاصطحبنا إلى مدينة توتنجهام، حيث دَعانا لتناول طعام العشاء (المبكِّر)، وأكرمنا – جزاه اللهُ كل خير – كرمًا يستغربه الإنسانُ في الغرب"[2].

على الرغم من تقديره للكرم الذي لقيه فإنَّ مطبَّقاني يعبر عن استغرابه من الفروق الثقافية بين المجتمعَين الشَّرقي والغربي، ويستحضر في ذِهنه التحوُّلات التي قد تصيب بعض الأفراد عندما يبتعدون عن بيئتهم الأصلية ويعيشون في بيئة ثقافية مختلفة.

ويستمرُّ مطبَّقاني في التعبير عن هذه الفجوة الثقافية بقَوله: "ولي كلمة: كيف يتحوَّل العربُ أو العُربان إلى غِربانٍ غربية في بلاد الغرب؟"[3]، وهذه العبارةُ تعكس تساؤلًا عميقًا حول كيفية تأثير العَيش في الغرب على هُوِيَّة العرب الذين يتأقلمون مع هذه البيئة الجديدة، وكيف قد تؤدِّي هذه التأثيراتُ إلى تغيُّرات في سلوكياتهم وقيمهم ومِن ذلك التراجُعُ عن بعض الفضائل مثل الكرم والمُروءة.

---

[1] ينظر: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية :151.

[2] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز:31.

[3] المصدر السابق: 31.

في حين يكمل استنكاره قائلًا: "عَرض علينا أحدُهم بيتَه في الإجازة بألف وخمسمائة جنيه، وكأنَّنا سنشتريه، أو لعلَّ بركاتِه في المنزل لها تلك القيمةُ المرتفعة"[1]، هذه الملاحظةُ تُظهر تحوُّلَ مفاهيم الكرم بين الثقافات، وظهورَ صُورة سلبية عن سلوكيات بعض العرب في الغرب يَنسُبها للمجتمع الغربي وكأنه هو من يسهم في منحهم صَفةَ الجشع.

_ الفساد الغربي

الفساد من أبرز التهديدات التي تواجه المجتمعات، وهو أحدُ الأسباب الرئيسة لتراجُعها. وهذا ما دفع مازن مطبَّقاني للتَّعبير عن استيائه الكبير إزاء انتشار ظاهرة الخمور وتأثيرها السَّلبي على المجتمع الغربي؛ إذ صارت هذه الظَّاهرةُ تؤثِّر على جميع فئات المجتمع من الشَّباب وكبار السنِّ. يصف مطبَّقاني إحدى تَجارِبه قائلًا: "أُتيح لي الجلوسُ في أحد المقاهي فرأيتُ اثنَين أحدُهما شابٌّ والآخر عجوز أو وَخَطَهُ الشَّيبُ. كان الشابُّ يحمل كيسًا من البلاستيك، والعجوزُ يحمل غطاءً للنَّوم، ووقفا أمام رجُلَين وسألاهما شيئًا، ولكنَّهما سارا بعد ذلك. لاحظتُ أنَّ العجوز يسير مكتئبًا، بينما الشَّابُّ كان يبدو عليه القوَّةُ البدنية وكان غيرَ متجهِّم. وفي اليوم التَّالي شاهدت الشابَّ ومعه الكيسُ نفسه، ولكنْ معه أيضًا زجاجةُ خمر نصفُها مليء، ومرَّت أمامي عجوزٌ تسير حافيةً، وهناك فتاةٌ عرجاء ترتدي ملابسَ رثَّةً. وأتساءل هل عددُ المعتوهين كثيرٌ جدًّا إلى هذه الدرجة وفي مدينة صغيرة مثل إكستر؟! ولكنْ ليت طالبًا عربيًا في الدِّراسات العُليا يتقن اللغة الإنجليزية يستطيع أن يقدِّمَ دراسةً عنهم"[2].

لقد شكَّلت هذه المشاهدُ صورةً سلبيةً عن المجتمع الغربي في ذِهن مطبَّقاني دفعته للتَّساؤل عن تأثيرات هذه الظَّواهر على المجتمع، ويستمرُّ مطبَّقاني في حديثه عن انتشار الخمور في الغرب قائلًا: "وتعجَّبتُ من فريق بريطاني يسافر إلى روسيا لاستقصاء أسباب وفاة الرُّوس المبكِّرة؛ فهل يستفيد الرُّوسُ من نتائج هذه الدراسات؟

---

[1] ينظر: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 31.

[2] المصدر السابق: 33-34.

وهل الغربُ أو الحضارة الغربية السَّكْرى الثَّمِلة يمكنها أن تُفِيقَ وتترك هذه الأمور؟ فيا أيُّها العلمانيون الليبراليون ماذا تريدون؟ تَعالَوْا وادرسوا هذه الحضارةَ دراسةً حقيقيةً لتعرفوا عظَمةَ هذا الدِّين لو طبقناه بطريقة صحيحة"[1].

وفي النهاية يعبِّر مطبَّقاني عن استيائه العميق من بعض جوانب الثقافة الغربية؛ خصوصًا فيما يتعلَّق بالابتعاث إلى بريطانيا؛ إذ يقول: "تكره بريطانيا لأسباب أخرى أنها قدَّمت الفرصَ للابتعاث إلى بلادها لدراسة العلوم الشُّرعية واللُّغة العربية والآداب. وهنا وقع كثيرٌ من الشَّباب فريسةً للأساتذة الإنجليز، وبعضهم دهاةٌ حقًا فغسلوا أدمغتهم وأفسدوا أخلاقهم. وإن كان الابتعاثُ إلى أمريكا كان دائمًا أكثرَ، ولكن في بريطانيا ما فيها مِن الفساد الفكري والأخلاقي"[2].

ومن المفارقات المثيرة التي أسهمت في تشكيل صورةٍ سلبية لدى الرحَّالة مازن مطبَّقاني التناقُضُ بين العناية الكبيرة التي توليها المجتمعات الغربية للأطفال في مراحل طفولتهم وبين ما يواجهونه من مستقبل مظلم حين يَكبَرون.

يعبِّر مطبَّقاني عن ذلك قائلًا: "وأتعجَّب من عنايتهم بالأطفال، بل إنني قرأتُ أنهم يحتفلون بتَبنِّي الأطفال، وجعلوا أسبوعًا للتَّبني، ثم قدَّموا عُروضًا مغريةً للرجال والنساء العاملين والعاملات بمنحهم تخفيضَ ساعات العمل للاعتناء بالأطفال، ولكنْ ما إن يَكبَر هؤلاء الأطفالُ حتى يقدِّموا لهم الأطعمة الزبالة، والجنسَ والخمر والعنف، أو يرسلوهم إلى الحروب لاحتلال دُوَل أخرى السَّعي وراء ثرواتها وخيراتها. فلماذا كلُّ هذه العناية بالأطفال إن كان سينتظرهم مستقبلٌ غامض أو مستقبل كالح أو مستقبل الحروب والتدمير؟"[3]، هكذا تغيَّرت الصُّورةُ الإيجابية التي رسمها الرحَّالة عن عناية المجتمع الغربي بالأطفال إلى صورة سلبية؛ إذ يلاحَظ أن هذه العنايةَ التي تُبذل في مرحلة الطفولة تتحوَّل إلى واقع مؤلم في مرحلة البلوغ يتمثَّل في مستقبل مليء

---

[1] ينظر: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 153–154.

[2] المصدر السابق: 197.

[3] المصدر السابق: 68.

بالعنف، والخمور، والجنس، والحروب، وهذا ممَّا يثير تساؤلاتِه حول جدوى تلك العناية الظاهرة.

العنف الاجتماعي:

افتتح مازن مطبَّقاني حديثَه عن معاناة المرأة في المجتمعات الغربية بملاحظة لافتة؛ إذ أشار إلى مُفارقة غريبة بين الدعوات الغربية لحريَّة المرأة ومساواتها بالرجل وبين ما تعانيه المرأةُ الغربية في الواقع.

يقول مطبَّقاني: "أيُّها الباحثون عن حريَّة المرأة في البلاد العربية والإسلامية ومساواتها بالرجل، لو عرفتُم ما تُعانيه المرأة هنا لتغيَّر رأيُكم وإعجابكم وانبهاركم" [1]، في هذا السِّياق صورةٌ سلبية عن العنف المنزلي المنتشر في الغرب تقرُّ بأن العنف ضِدَّ النساء في بريطانيا – على سبيل المثال– أصبح وباءً مسكوتًا عنه، ويشير إلى تقرير في صحيفة "ديلي ميل" في يونيو 2007م يفيد بأنَّ خمسة ملايين امرأة عُرضةٌ للعنف في حياتهن، فيما تصل ثلاثمائة وخمسون ألف حالةً إلى الشُّرطة سنويًّا[2]، ويضيف مطبَّقاني سردًا لواقع مأساوي آخَرَ فيروي مشهدًا من مدينة إكستر قائلًا: "وقد شاهدتُ العام الماضي رجلًا في مدينة إكستر يعتدي على امرأة معه بطريقة وحشية"[3]، هذا الحدثُ يعكس أحد جوانب العنف الممنهج الذي يعاني منه جزءٌ من المجتمع الغربي، ويعمِّق الصُّورة السلبية التي تشكَّلتْ في ذِهن الرحَّالة عن غياب القِيَم الإنسانية التي تَربَّى عليها.

كما يتطرَّق مطبَّقاني إلى نَوعٍ آخَرَ من العنف يطول كبار السنِّ في الغرب، مشيرًا إلى سُلوكيات مثل السخرية والإهمال، بل وسرقةِ الكبار أو الضَّغط عليهم لتغيير وصاياهم. هذا التَّصرُّفُ المؤسف يدفعه للتساؤل عن غياب الإحسان والرعاية للوالدين في المجتمعات الغربية، مشيرًا إلى أن الإسلام يقدِّم نموذجًا مختلفًا تمامًا ويذكر[4] قَولَ

---

[1] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 127.

[2] ينظر: المصدر السابق: 135.

[3] المصدر السابق: 136.

[4] المصدر السابق: 130.

الله تعالى: { ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا } [سورة الإسراء، الآية رقم23]، ويستحضر وصيَّةَ لُقمان لابنه: { وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ } [سورة الأحقاف، الآية رقم15].

لقد تكوَّنت لدى مازن مطبَّقاني صورةٌ سلبية عن المجتمعات الغربية بسبب انتشار العُنف ضدَّ النِّساء وكبار السنِّ، وغيابِ القِيَم الإنسانية التي تحثُّ على الرحمة والإحسان؛ إذ يجد أن هذه المجتمعاتِ تفتقر إلى المبادئ الخُلقية التي تعزِّز من احترام الكرامة الإنسانية، وهو ما يعكس التناقض بين مظاهر التقدُّم الظاهري والقيم الجوهرية التي تكفُل حقوقَ الأفراد وتحفظ كرامتهم.

_ الطبقية

يقول الله في كتابه العظيم: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ } [سورة الحجرات، الآية رقم 13]، وهذه الآية تمثِّل ثباتًا دينيًّا يؤكد عدم التَّفريق بين البشر بناءً على الماديَّات أو اللَّون أو الأصل، بل يُقاس التفاضلُ بالتَّقوى والعمل الصالح. إلا أنَّه مِن المواقف التي أسهمت في تشكيل صورةٍ سلبية لدى الرحَّالة السعودي مازن مطبَّقاني عن المجتمع الغربي التَّفرِقةُ الواضحة بين الفقراء والأغنياء في الأوساط الأكاديمية؛ وهذا ممَّا يعكس فجوةً اجتماعيةً كبيرةً.

يقول مطبَّقاني في إحدى ملاحظاته: "الغشُّ في هذه الجامعة وغيرها مقبولٌ؛ فالطلابُ الفقراء يكتبون الموضوعات للطلاب الأثرياء أو للاعبي كرة القدم مقابلَ أجورٍ عالية، ويَعرف ذلك الأساتذةُ والإدارة، ولكنها طريقةُ كسب العيش للطُّلاب الفقراء. والطلابُ الأثرياء في كثير من الأحيان لا تهمُّهم العملية التعليمية؛ فوظائفُهم مضمونة في مؤسَّسات آبائهم أو حيث يستطيع آباؤهم توظيفَهم بسهولة"[1]، ويُضيف أنَّ الأساتذة في هذه الجامعات ينقسمون على فئتين: فئةِ الفقراء الذين يعيشون في أحياء بسيطة، وفئة الأثرياء الذين يتواجدون في أحياء راقية ويشتركون في أندية ذات رسوم مرتفعة.

[1] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 180.

وقد أشار إلى أنَّ الجامعةَ لم تستقطب أحدَ الأساتذة فقط لمستواه العلمي، بلْ لأنه ينتمي إلى الطَّبقة الثَّرية البريطانية، وزوجتُه من أسرة أرستقراطية جعلته محطَّ اهتمام الأثرياء الذين كان حضورُهم للمحاضرات يعكس حالةً من الاستفادة الاجتماعية أكثرَ من الجوانب التعليمية[1].

وفي سياقٍ آخَرَ يروي مطبَّقاني حادثةً عن أحد الأساتذة الأثرياء الذي اشترى سيارةً فاخرةً، ثم سُرقت السيارة في أثناء زيارته لأحد الأحياء الفقيرة؛ فيجدُ أنَّ تعليقات الأساتذة الأثرياء الذين كانوا يعلمون عن زيارته للحيِّ الفقير كانت قاسيةً إذ قالوا له: "ما أصاب سيَّارتَك كان خفيفًا؛ كان من الممكن إحداثُ أعطال أكبرَ في السيارة؛ فهذه الأحياءُ محرومة من مَظاهر التَّرف هذه"[2]، هذا المشهدُ يعكس التَّباينَ الكبير في المعيشة، ويُظهر عدم إحساس الطَّبقات الثَّرية بالمسؤولية الاجتماعية تُجاه الفقراء.

كما يروي مطبَّقاني حادثةً أخرى عن مجموعة من الصِّبيان الذين قَتلوا رجلًا رجمًا بالحجارة في أحد الأندية، وكانوا يرتدون أقنعةً، ولا تزال الشُّرطة تبحث عن الجناة[3].

هذه الحوادثُ تشير إلى العنف والفقر المتجذِّر في بعض المناطق في الغرب، وتعزِّز من الصُّورة السَّلبية التي تكونت لديه عن التَّفاوت الطَّبقي وعدم العدالة الاجتماعية في المجتمعات الغربية.

المبحث الثاني: الأنساق المضمرة في رحلة مازن مطبقاني

_ المطلب الأول: النَّسق الأيديولوجي:

النَّسقُ الأيديولوجي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بكيفية رؤية الإنسان للأشياء وَفْقًا لمعتقداته وأفكاره؛ إذ يعكس هذا النَّسقُ طريقةَ تفكير الفرد التي تتَّسم بتفسير الواقع والوقائع من منظورٍ خاص يتوافق مع قناعاته الشخصية. وحين نقول إنَّ شخصًا ما ينظر إلى

---

[1] ينظر: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 180.

[2] المصدر السابق: 181.

[3] ينظر: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 181.

الأمور نظرةً أيديولوجيةً؛ فإنَّ ذلك يعني أنَّه يفسِّر الأحداث والوقائع بطريقة تُبرز تطابُقَها مع ما يعتقد أنَّه الحقيقة[1].

أمَّا في سياق الأيديولوجيا الدينية فإنَّنا نتحدث عن منظومة فكرية ترتبط بواقع اجتماعي وثقافي مُعيَّن، يحدِّدها مجموعةٌ من الرَّوابط الدينية، وهي في جوهرها متأصِّلة في العقلية الجمعية للمجتمع الذي تنبثق منه[2].

من خلال تحليل صورة المجتمع الغربي التي طرحها الرحَّالة مازن مطبَّقاني في المبحث الأول يتبيَّن أنَّ النَّسق الأيديولوجي الديني كان حاضرًا في بعضٍ من جوانب كتاباته؛ ومِن أبرز هذه الجوانب: حين كان ينتظر دَورَه في المطار حيث لاحظ الموظَّفَ الذي سيَخدُمه وتساءل عن دينه على الرَّغم من أن هذه المعلومة لا تؤثر على سَير الخدمة؛ ففي قوله: "وجاء دَوري، وكان الموظَّفُ الذي ينظر في قضية تمديد التأشيرة من أصل هندي أو باكستاني، ولا أعرف هلْ هو مسلمٌ أمْ لا"[3]. فيكشف عن أنَّ تساؤله لم يكن عن عمل الموظف أو مدى كِفاءته في أداء مَهامِّه، بل كان عن دِينه، هذا التساؤلُ يعكس النَّسق الأيديولوجي الديني الذي يؤثِّر على طريقة تفكير الرحَّالة، ويجعله يُولي اهتمامًا أكبر للديانة بدلًا من العوامل الأخرى التي قد تكون أكثرَ صِلةً بالوضع الرَّاهن. ومن ثمَّ يعكس هذا التصرُّفُ مدى تأثير الأيديولوجيا في تشكيل مواقف الرحَّالة وطريقة تفسيره للواقع.

كما أن الحجابُ في السِّياق الديني رمزٌ للسَّتر والتديُّن في المجتمعات المسلمة، ويظلُّ موضوعًا ذا أهمية في المجتمعات غير المسْلمة أيضًا؛ إذ تتباين دلالاتُه وَفقًا للسِّياق الثقافي والاجتماعي. وبحسَب الانزياحات الدَّلالية يمكن أن يَتَّخذ الحجابُ أبعادًا تتجاوز معناه الديني ليشمل دلالاتٍ اجتماعيةً وثقافيةً متنوِّعةً[4] تتغيَّر بتغير البيئة

---

[1] ينظر: مفهوم الإيديولوجيا:10.

[2] ينظر: تجليات الخطاب السياسي والإيديولوجي في رواية الأعظم لإبراهيم سعدي: 18.

[3] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 98.

[4] ينظر: https://al-wattan.net/news/206133 الاطلاع بتاريخ الاثنين، 2024/12/2م.

والمجتمع. وفي هذا السياق يَظهر الحجابُ في خطاب الرحَّالة مازن مطبَّقاني ليكتسب أبعادًا إضافيةً قد تخرُج عن نطاقه الديني.

ويتجلَّى تحوُّلُ دلالة الحجاب في كتابات مطبَّقاني من خلال استشهاده بآراء وأحكام ثقافية؛ كما في قوله: "أمَّا الحجابُ فلماذا كلُّ هذا الكلام عنه؟ أليست السُّترةُ والعفَّة أفضل من التَّفسُّخ واللِّباس المُقْرف المُقزِّز الذي تتَّخذه النساء في الغرب اليوم؟"[1]،هنا يظهر الحجابُ أداةً للسَّتر والعفَّة، ولكنه يحمل انزياحًا دلاليًّا يتجاوز المعنى الديني المتعارف عليه ليكتسب بُعدًا ثقافيًّا يرتبط بالرَّفض الاجتماعي للملابس الغربية التي يراها مطبَّقاني تجسيدًا للتفسُّخ والابتعاد عن القيم الخُلقية[2]. ومِن دون الحجاب تصبح المرأةُ في عيون المجتمع صورةً مشوَّهةً وغير متوافقة مع المعايير الخُلقية التي يروِّج لها.

ويستمرُّ هذا النَّسق في الظهور في مواضعَ أخرى فيظهر في مقُولة مطبَّقاني: "وقد لفت انتباهي عبارةٌ لأستاذة من الفقراء في الجامعة قالتها للأستاذ الضَّيف: صحيحٌ أنَّك متفتِّح، ولكنْ لماذا تترك زوجَك مع هؤلاء الرجال الأجانب؟ فتعجَّبتُ هلْ من الممكن أن يُفسِدَ أحدٌ امرأةً تجاوزت الأربعين أو الخمسين ضدَّ زوجها؟ وهل تقع خياناتٌ زوجية بين كبار السنِّ؟ ربَّما... ولكنِ الحمدُ لله على نعمة الإسلام ونعمة الحجاب ونعمة الغِيرة" [3].

في هذا السِّياق يتحوَّل الحجاب من كونه مظهرًا دينيًّا إلى أداة لحماية النساء من الخيانات الزوجية؛ وهذا ممَّا يعكس تغييرًا في كَونه قِيمةً دينيةً إلى قيمة اجتماعية وثقافية؛ فيصبح الحجابُ معيارًا اجتماعيًّا يُستخدم للحفاظ على العَلاقة الزوجية وصَونها من الانحرافات التي قد تحدُث؛ وهو ما يعكس النَّظرةَ المجتمعية إلى الحجاب أداةً لضبط السُّلوك وحماية القيم الأسرية.

---

[1] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 208.

[2] ينظر: الأنساق الثقافية المُضمَرة في رواية قيد الفراشة لشيرين سامي: 58.

[3] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 181.

من خلال هذا الخطاب يظهر النَّسق المضمَر أداةً ثقافيةً تتحكَّم في تفسير معنى الحجاب وتوظيفه في السياقات الاجتماعية؛ إذ يُستخدم الحجابُ أداةً للتمييز الاجتماعي وتقديم أحكام ثقافية على سلوكيات الأفراد بناءً على فَهمٍ اجتماعي يتجاوز المعنى الدينيَّ البحت للحجاب ليصبح معيارًا يُقاس به التزامُ الفرد بالقِيم المجتمعية والخلقية السائدة.

_ النسق الذكوري

يَظهر النَّسق الذكوري في تصورات مازن مطبَّقاني من خلال تقويمه لبعض الظواهر الثقافية والسُّلوكية التي لا تتماشى مع التصوُّرات التقليدية للوظائف الاجتماعية بين الجنسَين؛ ففي حديثه عن رجلٍ كان يرتدي فُستانًا ويزيل شعر يديه وساقيه يعبِّر عن استغرابه تصرُّفه قائلًا: "وكان أحدُهم يرتدي فستانًا، وقد حلق أو أزال شعر يدَيه وساقَيه وقد أصبحتا مُحمرَّتَين؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ الإزالة قريبةُ العهد؛ فسيبقى أحمرَ بعض الوقت حتَّى تحين إزالةُ الشَّعر مرةً أخرى. وسألتُ زوجتي: لماذا يفعل في نفسه هكذا؟ قالت: ليس لي علمٌ بهذه الأمور، نحن بحاجةٍ إلى علماء اجتماع مسلمين يدرُسون أوضاعَ هؤلاء الناس حتى نعرفهم عن قُرب، وهذه الظاهرةُ لم تكن في القطار فقط، بل لقد مرَّت معنا صورٌ أخرى في أماكن أخرى"[1]، ولله درُّ الرَّافعي الذي قال:

وما عجبي أنَّ النِّساءَ ترجَّلتْ ولكنَّ تأنيثَ الرِّجال عجيبُ[2]

في هذا الموقف يتجلَّى النَّسق الثقافي المضمَر الذي يعكس نظرةَ مطبَّقاني التقليدية إلى الوظائف الاجتماعية؛ إذ يلوم الرجلَ ذا السِّمات الأُنثوية، في حين لا يرى مشكلةً في النِّساء اللواتي يتَّسمن ببعض سِمات الرجال. فالرُّجولةُ – كما يفهمها قِيمةٌ مضافة ترفع من شأن الرَّجل ولا تؤثِّر سلبًا على المرأة، أمَّا تأنيثُ الرجال فيُعدُّ أمرًا شاذًّا يعبِّر عن خلل ثقافي في نظره. واستشهادُه ببيت الرَّافعي يعكس اعتقاده أنَّ الرجولة هي السِّمة المعيارية التي ترفع من قيمة الرجل، أمَّا محاولةُ الرجل تبنِّي سلوكياتٍ أنثويةً

---

[1] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 32.

[2] ديوان الرافعي: 39.

فهو خروجٌ عن المألوف؛ الأمر الذي يوضِّح تداخل النَّسق الذكوري مع رؤيته للوظائف الاجتماعية في المجتمع الغربي.

كما تُظهر مسألةُ معيار العُمر بوضوح في النَّسقَ الذكوري الذي تُستثنى فيه المرأة من دائرة الفعل الاجتماعي؛ إذ تَفرض الثقافةُ الجمعية مقياسًا عُمريًّا محددًا يرتبط بتحديد أطوار المرأة الاجتماعية بناءً على سنِّها، في حين يُعدُّ العُمرُ معيارًا غير مؤثِّر للرَّجل[1]. وهذه النظرةُ الذكورية تنعكس على التصوُّر الاجتماعي الذي يصنِّف المرأةَ ضمن فئات عُمرية مُعيَّنة، ويحدِّد من خلالها ما يُسمح لها بالقيام به أو عدمه، في حين يُمنح الرجلُ حريَّةً أكبر تخلو من هذه القيود الثقافية.

تتجسَّد هذه النظرة الذكورية في إحدى المواقف التي يذكرها مازن مطبَّقاني في رحلته حيث يتحدَّث عن امرأة في الخمسين من عمرها كانت قد صَعدتْ جبال الهملايا فيقول: "ولكنْ بعد قليل جاءت امرأةٌ تحتاج إلى أكثرَ من مقعد فضايَقتْني وكادت تكتُم أنفاسي، ولكنْ قُربَ نهاية الرحلة دار حديثٌ بيني وبينها عن رحلتها إلى جبال الهملايا (السُّفوح)، وإن قالت إنَّها صعدت بعضَ الجبال.. (لا أصدِّق) المهمُّ.. تحدَّثت عن الحياة بعيدًا عن مظاهر المدنية والاختلاط بالناس البُسطاء الذين لا يعرفون الكهرباء ولا مواقد الغاز ولا الإنترنت ولا الهاتف. وإذْ بها فوق الخمسين ومُطلَّقةٌ. وكان طريفًا أنَّ والدتها كانت في محطَّة الحافلات لاستقبالها وعرضتْ عليَّ إيصالي إلى المنزل، وهو أمرٌ غير معتاد في العالم المادي"[2]، في هذا السِّياق يَظهر عدم تصديق الرحَّالة للمرأة على الرغم من أنها في سنٍّ يسمح لها بممارسة مثل هذه الأنشطة الجبلية، في حين نجده يصدِّق الرجل الذي تجاوز الستِّين من عمره ويُثني عليه بسبب حصوله على عدَّة شهادات ماجستير، معتبرًا ذلك إنجازًا إيجابيًّا.

هذه المقارنةُ بين موقفه من المرأة الخمسينية وموقفه من الرجل السِّتِّيني تكشف عن تحيُّزات ثقافية تتعلَّق بتقدير العُمر؛ إذ يرى الرَّجلُ في سنٍّ متقدِّمة قادرًا على الإنجاز

---

[1] ينظر: ثقافة الوهم: مقاربات حول المرأة والجسد واللغة: 57.

[2] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 194-195.

والإبداع، في حين تُرى المرأة في السنِّ نفسها تجاوزت مرحلةَ الفعل الاجتماعي النَّشِط. وهذا التوجُّهُ الذكوري يتوازى مع رؤية ابن عبد ربّه التي تعزّز هذه الفكرةَ منذ القِدَم في قَوله: "آخِرُ عُمر الرَّجل خيرٌ من أوَّله؛ يثوب حِلمُه وتَثقُل حَصاته[1]، وتُحمَد سريرته، وتكمُل تَجارِبه، وآخر عمر المرأة شر من أوله، يذهب جمالها، ويذرب لسانها، وتعقم رحمها، ويسوء خلقها"[2]؛ إذ يرى التَّقدُّمَ في السنِّ لدى الرجل محطَّ احترام، وعلامةً على الحكمة والإنجاز، في حين يُرى تقدُّم السنِّ عند المرأة عاملًا مقيِّدًا لقدراتها الاجتماعية.

من خلال هذه المقارنة يتَّضح أن النَّسقَ الثقافي السائد يعزِّز هذه الصُّورة النمطية ويفرضها في تصوُّر الأفراد بعضهم لبعض؛ الأمرُ الذي يسهم في استمرار التَّفرِقة بين الوظائف الاجتماعية المعتمِدة على الجنس والعُمر.

_ النسق الاجتماعي

يُعرَّف النَّسق الاجتماعي بأنَّه: "نسقٌ للسلوك الاجتماعي يتضمَّن جمعًا من الأفراد المتفاعلين"[3]. كما عرَّفه راد كليف براون بأنَّه: "مجموعةٌ معيَّنة من الأفعال والتفاعلات بين الأشخاص الذين توجد بينهم صِلاتٌ متبادلة"[4].

هذه التَّعريفات تُشير إلى أن النَّسق الاجتماعي يشمل مجموعةً من الأفراد الذين يتفاعلون باستمرار، وتجمعهم روابطُ اجتماعيةٌ تجعل سلوكيَّاتِهم مترابطةً. ويندرج تحت هذا النَّسق نسقٌ واحد هو تحوُّلُ قيمة الكرم الذي يمثِّل تحوُّلًا ثقافيًّا لدى الرحَّالة خارجًا عن المفهوم التقليدي الذي نشأ على أساسه.

فالكرم يُعرَّف بأنَّه: "قيمةٌ دينية وخُلقية، وجزءٌ من المُروءة والتكامل الاجتماعي، وهو المعنى الأصلي للكرم الذي جاء في الحديث الشريف: **«مَن كان يؤمِن بالله واليوم**

---

[1] حصاته: عقله ورأيه. طبائع النساء: 163.

[2] ينظر: المرجع السابق: 163.

[3] قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور: 347.

[4] المرجع السابق: 374.

الآخِر فلْيُكرِمْ ضَيفَه»[1]؛ إذ كان الكرمُ في الثقافة العربية جزءًا من قيمة القَبيلة، وضرورةً اجتماعيةً في الحياة الصَّحراوية"[2].

في السِّياق البدوي لم يكن الكرمُ يُمارس بدافع المديح أو تجنُّب الذَّمِّ، بل كان قِيمةً وجوديةً؛ فإكرامُ الضيف كان يعني بقاء الحياة؛ لأنَّ عدمَ استضافته قد يُنذر بالخطر والمَوت في الصحراء. إلَّا أن هذا المفهوم قد شَهِد تحوُّلاتٍ مع الزَّمن؛ خاصَّةً بعد أن تغيَّرت ظروفُ الحياة الاجتماعية بانتقال الناس من الصحراء إلى الحياة الحضرية؛ ممَّا أدَّى إلى تغيُّر في دلالة الكرم من كَونه مسألةَ بقاء إلى مجرد مقياس اجتماعي يُستخدم للمُباهاة والتفاخر.

وفي هذا السياق يعكس مازن مطبَّقاني في كتاباته هذا التحوُّلَ في القيمة الاجتماعية للكرم فيقول عن صديقه أحمد المليباري: "وأكرمنا – جزاه الله كل خير – كرمًا يستغربه الإنسان في الغرب"[3]. وهذا ممَّا يعكس تحوُّلَ الكرم من سلوك يسعى إلى الحفاظ على الحياة إلى سلوك يُستخدم معيارًا للمفاخرة والتباهي. وهذا التحوُّلُ يظهر بوضوح كيف أصبح الكرمُ قيمةً اجتماعيةً تسعى أحيانًا إلى التفوُّق الاجتماعي والمباهاة على الآخرين، وتتركَّز على أولئك القادرين على إظهار كرمٍ مُفرِط، في حين قد يُهمَّش أولئك الذين لا يستطيعون تلبيةَ هذا المعيار الاجتماعي.

نتائج البحث:

- الصُّورة التي نقلها الرحَّالة تأثَّرت بتصوُّراته الثقافية السَّابقة فأسهم في تشكيل رؤيته نحو الآخَر.
- كُتب الرحلات – مثل "رحلاتي إلى بلاد الإنجليز"– تكشف عن القِيَم الثقافية المخفيَّة التي تحكُم تصوُّراتِ الرحَّالة وتُسهم في فَهمِ أسباب الخلاف بين الأنا والآخَر.

---

[1] البخاري: 1533، مسلم: 68.

[2] النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية: 151.

[3] رحلاتي إلى بلاد الإنجليز: 31.

- الجمالية النَّصيَّة في كُتب الرحلات تخفي معاني مكبوتةً تتعلَّق بالقيم الثقافية والاجتماعية التي تؤثِّر في تصوير الآخَر.
- كتبُ الرحلات تتميَّز بالواقعية والمصداقية؛ وهذا ممَّا يجعلها أدواتٍ تحليليةً لفَهم التَّفاعل الثقافي دون التصوير الأدبي الموجود مثلًا في الروايات.
- الأنساق المُضمَرة في "رحلاتي إلى بلاد الإنجليز" تمثِّل اعترافاتٍ غيرَ مُعلَنة تكشف عن تحيُّزات ثقافية واجتماعية خفيَّة، وتعكس مواقفَ مكتومةً وأفكارًا ضمنيةً ظهرت من خلال التفاصيل والرموز دون أن تُصرِّح بها مباشرةً

المصادر والمراجع

أبو شرارة، ابتسام، "أنساق من النقد الثقافي في شعر الشَّنْفَرى"، مجلَّة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، الجامعة الأردنية، الأردن، 2020م.

الأندلسي، ابن عبد ربّه، طبائع النساء، القاهرة: مكتبة القرآن، د.ت.

البازعي، سعد ، الرويلي، ميجان ، دليل الناقد الأدبي، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط3،، 2002م.

بترعة، خولة، وصالحي، شهرزاد، "الأنساق الثقافية المُضمَرة في رواية قيد الفراشة لشيرين سامي"، رسالة ماجستير، المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف وميلة، الجزائر، 2021م.

بعلي، حفناوي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 2007م.

حامد، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، أبها، نادي أبها الأدبي، ط1 ، 2014م.

الدسوقي، عمر، نشأة النثر الحديث وتطوره، القاهرة:، دار الفكر العربي، 2007م.

الرافعي، مصطفى صادق، ديوان الرافعي، د.ط، ج2، الإسكندرية: مطبعة الجامعة بالإسكندرية، 1321هـ.

رضا، أحمد، معجم متن اللغة،، بيروت، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1959م.

الشاردي، فاطمة، "صورة الشَّخصية في أدب الرحلات العلمية بالمملكة العربية السعودية في ضوء النقد الثقافي"، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك خالد، أبها، 2024م.

الشهواني، هيا ناصر، "صورة الرَّجل في المتخيَّل النِّسوي في الرواية الخليجية"، رسالة ماجستير، جامعة قطر، قطر، 2014م.

الصياد، فاطمة، التَّجلِّيات الفلسفية في علم أنثروبولوجيا الأديان، مجلد19، عدد1، مجلة أنثروبولوجية الأديان، 2023م.

العروي، عبد الله، مفهوم الإيديولوجيا، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط5 ، 1993م.

عصفور، جابر، الصُّورة الغنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992م.

عطية، ساعد، "تجلِّيات الخِطاب السياسي والإيديولوجي في رواية الأعظم لإبراهيم سعدي"، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2017م.

الغذامي، عبد الله ، اصطيف، عبد النبي ، نقد ثقافي أم نقد أدبي، دمشق، دار الفكر، ط1، 2004م.

الغذامي، عبد الله، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية بيروت– الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط3، 2005م.

الغذامي، عبد الله، ثقافة الوهم: مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، بيروت، المركز الثقافي، ط1، 1998م.

مطبَّقاني، مازن، رحلاتي إلى بلاد الإنجليز، الرياض، العبيكان، ط1، 2011م.

هولتكرانس، إيكة، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور، ترجمة: محمد الجوهري وحسن الشامي، مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط2، د.ت.

اليافي، نعيم، مقدمة لدراسة الصُّورة الفنية، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1982م.

https://al-wattan.net/news/206133